

القلم

obeikandi.com

المقدمة

يشير الباحثون إلى أن أول فكر صوتي يرجع إلى أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) الذي وضع رموزاً للحركات، عندما بدأ الخطوات الأولى في وضع النحو العربي بتحرير أواخر الكلمات فيما سمي نقط الإعراب^(١) «فكانت الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة تحته، والضمة نقطة أمام الحرف، فإن لحق شيئاً من هذه الحركات التنوين، وضعت نقطتان، إحداهما للحركة، والثانية للدلالة على التنوين»^(٢) ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) فوضع أسس هذا العلم في كتابه العين، متبع المنهج التجريبي الذاتي، معبراً عنه بالذوق، أي ذوق الحروف، بتجربة نطقها، والتأمل الذاتي في موضع تكون كل حرف وصفاته ومخرجه، وفي ذلك يقول الليث حاكياً عنه: «وإنما كان ذوقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف (أي المراد ذوق الحرف)^(٣) نحو: أب - أت - أخ - أع - فأغ فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب، ثم قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم»^(٤). ولقد وفقوا في رسم رموز هذه الأصوات كتابة لإبلاغ من بعدهم....^(٥).

(١) د. حسن عون، اللغة والنحو من ص ١٧٩ : ص ١٩٩ .

(٢) الداني، كتاب النقط، ضمن كتاب المقنع في رسم المصاحف، من ص ١٢٩ : ص ١٣١ .

(٣) ما بين المعقوفين زيادة من عندنا.

(٤) الخليل بن أحمد، العين: ج ١ ص ٤٧ .

(٥) د. محمد حسن جبل، المعنى اللغوي، ص : ٥٤ .

وهنا نقف قليلا مع ما ذكره الخليل لنعرف أنه بنى كتابه على أساس صوتي يختلف عن نظام أبجد هوز، ونظام نصر بن عاصم، لأنهما مبدوءان بالألف، والألف حرف معتل، ففكر فيه، فلم يمكنه أن يبتدئ من أول «أ، ب، ت، ث» لأن الألف حرف معتل، فلما فاتته الحرف الأول كره أن يبتدئ بالثاني - وهو الباء - إلا بعد حجة، واستقصاء النظر، فدبر ونظر إلى الحروف كلها وذوقها، فصير أولها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق»^(١).

ثم جاء من بعده تلميذه النابه سيويه (ت ١٨٠ هـ) فعرض للدراسة الصوتية في كتابه «الكتاب» دستور النحو العربي في مواضع عديدة، منها الإدغام، والإبدال، والإمالة، وأحوال الهمزة... إلخ^(٢).

وكان منهجه نابعا من منهج أستاذه الخليل، قائما على التجربة الذاتية معتمدا على المشاهدة والاستقراء، والوصف الدقيق للحروف.

ثم أتى عبقرى العربية أبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢ هـ) فأفرد للدراسة الصوتية كتابا بعنوان «سر صناعة الإعراب» أفرغ فيه جهدا كبيرا يضيف على البحوث الصوتية لونا من القوة، ويبين أنها دراسة لغوية مهمة يجب على عالم اللغة أن يضعها في الاعتبار، ومعظم الآراء التي ساقها في

(١) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٢) سيويه، الكتاب، ينظر في الجزء الرابع كله، والمبرد، المنتضب (باب البدل، ج ١ ص ١٩٩: ٢٢٨، وباب الإدغام ص ١ ج ١ ص ٣٢٨: ٣٤٢، وباب الإمالة ج ٣ ص ٤٢: ٥٢، وباب الهمز ج ١ ص ٢٩٢، والزجاجي، الحمل ص ٣٧٥، وابن سينا، أسباب حدوث الحروف ص ٤، ٣.

كتابه نالت إعجاب المستشرقين وعلماء اللغة الأوروبيين، لتوصله إلى ملاحظ دقيقة لفهم أسرار اللغة، يقول برجستراسر: «ولم يسبق الغربيين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق، وهما أهل الهند يعنى البراهمة والعرب»^(١) ويقول فيرث: «إن علم الأصوات، قد نما وشب في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية»^(٢). فالعرب - كما يقول الدكتور عبد الغفار هلال - من السابقين في هذا الميدان، لأنهم ساروا بلغتهم على نمط خاص من ابتكار العلماء العرب، وباستقلال عنه الهند^(٣).

ومما يؤيد هذا أن ابن جنى ربط بين علم الأصوات وعلم الموسيقى، بقوله: «إن علم الأصوات والحروف له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صناعة الأصوات والنغم»^(٤).

وجهاز الصوت عنده كالناى، فإن الصوت يخرج منه مستطيلاً أملس ساذجاً، كما يجرى الصوت فى الألف غفلاً بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى المنسوقة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت فى الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات، ونظير ذلك أيضاً وتر العود فإن الضارب إذا ضربه، وهو مرسل

(١) برجستراسر، التطور النحوى للغة العربية: ص ١١ .

(٢) د. أحمد مختار عمر، البحث اللغوى عند العرب، ص ٧٩ .

(٣) أصوات اللغة العربية: ص ١٣ .

(٤) ابن جنى، سر صناعة الإعراب، ج ١، ص ١٠ .

سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه، أدى صوتا آخر، فإن أذناها قليلا، سمعت غير الاثنين»^(١).

ويرى أستاذنا الدكتور عبده الراجحي «أن هذه الصورة التي قدمها ابن جنى تعد خطوة متقدمة جدا في الدرس اللغوي، لكنها تمثل لدينا صورة صحيحة للتطور عند العرب، نقصد تطور المنهج، لأن البدء كان سليما، إذ كان صادرا عن الاتصال المباشر بالظاهرة اللغوية»^(٢).

ويصدر الصوت عن جهاز يسمى جهاز النطق الإنساني Organs Speech يشبه الآلة الموسيقية، أو هو أكمل آلة موسيقية من حيث المرونة، ومن حيث الإمكانيات، أعني من حيث القدرة على إخراج أنواع من الأصوات لا حد لها^(٣). إن ما يخرج بالصوت يدل على ما في النفس، وهي التي تسمى آثارا والتي في النفس (تدل) على الأمور، وهي التي تسمى معاني، أي : مقاصد للنفس^(٤).

ويحسن بنا أن نقبس هذا النص للعلامة ابن جنى لنرى كيف أدرك الفرق بين الحقيقة الصوتية التي هي العملية الحركية ذات الأثر السمعي، وبين الحرف كوحدة تجريبية، قد تكون مكونة من صوت واحد، أو عدة أصوات، يقول : «اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا حتى يعرض له في الحلق والغم والشففتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا»^(٥).

(١) ابن جنى، سر صناعة الإعراب، ج ١، ص ٩ وما بعدها.

(٢) د. عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية ص ١٣٣ .

(٣) د. محمود السعان، علم اللغة «مقدمة للقارئ العربي» ص ٩٨ .

(٤) د. محمد حسن جبل، المعنى اللغوي : ص ٥٢ .

(٥) ابن جنى، سر الصناعة: ج ١، ص ٦ .

وهنا ندرك أنه فرق بين الصوت والحرف، فلا يسمى الصوت حرفاً حتى ينقطع عند جزء معين من أجزاء أعضاء النطق، ونحن نعتقد أن ما وصلت إليه الدراسات الحديثة في هذا المجال جاء مبنيًا على أساس هذا التفريق الذي حدده ابن جنى .

ولكن، ما مفهوم كل من الصوت، الحرف، المخرج، التحيز؟

الصوت : كما يقول عبقرى العربية ابن جنى - مصدر صات الشيء يصوت صوتاً فهو صائت وصوتت تصويته فهو مصوت، وهو عام غير مختص... ويقال رجل صات، أى شديد الصوت... ولفلان صيت إذا انتشر ذكره بين الناس...^(١) وصات وأصات وصوتت كله ينادى، ويقال : صات يصوت صوتاً فهو صائت : معناه : صائح^(٢) وعلى كل حال فإن الصوت : هو الأثر السمعي الذى تحدثه تموجات ناشئة عن اهتزاز جسم ما^(٣) والأصوات فى اللغة هى مادة الألفاظ، وأساس الكلام المركب، والعمدة فى تكوين الأداء، وإعطائه رنينا إضافيا يزيد من وضوح التعبير، وصدقه على حمل فكرة المتكلم، أو التأثير بها فى السامع، وهذه الأصوات تشخص ويتميز بعضها من بعض فى اللغات^(٤).

أما الحرف لغةً فهو كل واحد من حروف المبانى الثمانية والعشرين التى تتركب منها الكلمات، وتسمى حروف الهجاء، والحرف كل واحد

(١) المصدر السابق: ج ١ ص ١١، وعبقرى اللغويين: ج ٢ ص ٥١٨ .

(٢) اللسان، مادة صات .

(٣) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة صات: ج ١، ص ٥٤٧ .

(٤) د. حسن ظاظا، كلام العرب (من قضايا اللغة العربية)، ص ٧ .

من حروف المعانى، وهى التى تدل على معانٍ فى غيرها وترتبط بين أجزاء الكلام^(١).

وفى الاصطلاح: حد منقطع الصوت وغايته وطرفه^(٢) وهو عند القدماء مرادف للصوت، يقول ابن يعيش: «إنما هو صوت مقروع فى مخرج معلوم»^(٣).

ومعنى هذا أن الصوت الناتج عن حركة الخبلين الصوتيين ووضعهما هو ما نسميه الحرف.

أما المخرج فهو عند القراء والصرفيين: «موضع خروج الحرف وظهوره وتمييزه من غيره بواسطة الصوت، وفى علم الأصوات: نقطة فى مجرى الهواء، يلتقى عندها عضوان من أعضاء النطق التقاء محكماً مع بعض الأصوات، وغير محكم مع أصوات أخرى»^(٤) وقال ابن يعيش: «المخرج هو المقطع الذى ينتهى الصوت عنده»^(٥).

أما الحيز فهو مكان النطق، وهو منطقة أوسع من المخرج، بحيث يضم مجموعة من المخارج المتقاربة مثل حيز الشفتين^(٦) وحيز الشفتين يشتمل على مخارج الحروف الشفوية (ب - و - ف - م).

(١) المعجم الوسيط، مادة وحرف: ج ١، ص ١٧٤.

(٢) سر صناعة الإعراب: ج ١، ص ١٦.

(٣) شرح المفصل: ج ١٠، ص ١٢٤.

(٤) المعجم الوسيط، مادة وخرج: ج ١، ص ٢٢٣.

(٥) شرح المفصل: ج ١٠، ص ١٢٤.

(٦) الخليل بن أحمد، العين: ج ١، ص ٦٤.

ولا يخفى علينا أن هناك علاقة متشابكة بين علمى الأصوات والبلاغة، فعلماء البلاغة فى حاجة ماسة إلى علم الأصوات، فالكلمة لا تتسم بالفصاحة عندهم إلا إذا كانت من حروف متباعدة المخارج يسهل نطقها على المتكلم، وقد أفردوا حروفا معينة أسموها بالحروف المتنافرة يجب على المتحدث أن يتنحى جانباً عنها حتى يعد فى نظرهم بليغاً، والاختصار على انتباه السامع يستلزم اختيار الألفاظ، ثم وضعها فى جملة مع تنسيق أجزائها، ثم تنسيق الجملة أو الجمل كلها فى النص الأدبى، واختيار الألفاظ يكون بتفضيل أسهلها نطقاً، وأقلها ثقلاً فى الحرف، حتى يسهل تلقيها واستيعاب مقاطعها، وإدراكها فى غير تكلف ولا تعسف^(١).

ونفهم مما سبق، أننا عن طريق علم الأصوات، نستطيع أن ننطق النطق الصحيح للكلمة، ونتابع ما يطرأ على الكلمات من تغيير على مر العصور. ولقد تأثر هذا النوع من الدراسات الصوتية بعدة عوامل جعلته يتطور تطوراً ملحوظاً، يرجع أهمها إلى :

- ١ - التطور الطبيعى للأعضاء فى الفصيلة الإنسانية، لأن أعضاء النطق فى تطور طبيعى مطرد^(٢) وهذا التطور تلقائياً لا دخل فيه للإرادة الإنسانية.
- ٢ - تفاعل أصوات الكلمة بعضها ببعض^(٣).
- ٣ - أثر العوامل النفسية والاجتماعية والجغرافية والأدبية^(٤).

(١) د. حفنى ناصف، التصوير البيانى ص ٢٥ .

(٢) د. على عبد الواحد وافى، علم اللغة، ص ٢٥٠ : ٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٩٨ .

(٤) المصدر السابق : الصفحة نفسها .

٤ - الأخطاء السمعية، كخلط بعض الأصوات بأصوات أخرى قريبة منها في المخرج، كاخلط بين الفاء والشاء في «شعث وشعف» وهذه الأخطاء السمعية ناتجة عن ضعف السمع أو اختلال أجهزته.

ومن هنا يتبين لنا أن الدراسات الصوتية تتطور تطوراً ملحوظاً، وذلك لأن اللغة كائن حي يخضع للتطور والتغيير من جيل إلى آخر، فاللغة دائمة التطور مهما أحيطت بسياج من الحرص عليها، والمحافظة على خصائصها، لأن اللغة ليست في الحقيقة إلا عادات صوتية تؤديها عضلات خاصة، ويتوارثها الخلف عن السلف، غير أن تلك العضلات لا تؤدي تلك العادات الصوتية بصورة واحدة في كل مرة، بل قد يلحظ عالم الأصوات بعض الفروق الدقيقة بين نطق أبناء اللغة الواحدة في البيعة الواحدة^(١) وهي ظاهرة اجتماعية تحيا في أحضان المجتمع، وتستمد كيانه منها، ومن عاداته وتقاليد، وسلوك أفراد، كما أنها تتطور بتطور هذا المجتمع، فترقى برفقه وتنحط بانحطاطه.

وكان من نتيجة تطور اللغة أيضاً دخول الدراسات الصوتية في مجالات متعددة، كالطب والهندسة والموسيقى والفنون... إلخ.

وخلاصة القول أن لغويي العرب القدامى - خصوصاً الخليل وسيبويه - وصفوا الحروف وصفاً دقيقاً أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم فقد تحدثوا عن صفاتها ومخارجها بما يدل على إرهاب الحس العربي وشفافيته.

أما المنهج الذي سرت عليه في هذا البحث، فإنه يقوم على الملاحظة

(١) د. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ص ٢٣١.

والتحليل والوصف الدقيق لمخارج الحروف وصفاتها، ومراحل تطورها، والتأمل الذاتي لها، حسب ما تقتضيه نوعية الدراسة على النحو الآتي :

- **المنهج الوصفي Descriptive Method** استخدمته أثناء الملاحظة والوصف الدقيق لمخارج الحروف وصفاتها.

- **المنهج التجريبي Experimental Method** تتبعته أثناء التأمل الذاتي والتدبير، واستقصاء النظر في موضع تكون كل حرف وصفاته ومخرجه.

- **المنهج التاريخي Historical Method** تتبعته من خلاله دراسة الأصوات، ومراحل تطورها ونموها في ضوء ما وصل إليه علماء اللغة المحدثون.

هذا وقد تضمن هذا البحث سبعة فصول، يسبقها مقدمة، تحدثت فيها - بإيجاز - عن الأسس التي قامت عليها الدراسة الصوتية، والعوامل التي أدت إلى تطور علم الأصوات على مر العصور، وذلك لأن اللغة كائن حي يخضع للتطور والتغيير من جيل إلى آخر.

الفصل الأول وعنوانه جهاز النطق الإنساني تحدثت فيه عن أعضاء النطق «الرئتين - القصبة الهوائية - الحنجرة - البلعوم - الحلق - تجويف الفم - الشفتان - الخيشوم - الأنف» ثم كيفية حدوث الصوت في جهاز النطق.

أما الفصل الثاني فتحدثت فيه عن مخارج الحروف المحققة والمقدرة وكيفية تحديدها، وبيان عددها وتصنيفها على نحو ما نص عليه علماءنا القدامى والمحدثون. ثم تناولت صفات الحروف بشيء من التفصيل.

أما الفصل الثالث فعنوانه الإحلال بين الصوائت القصيرة Replacement of short vowels تحدثت فيه عن كيفية حدوث الحركات القصيرة Short Vowels (الفتحة والضمة والكسرة) وكيفية تكونها، تلك التي أطلقوا عليها أبعاض حروف المد، وتحدثت كذلك عن عوامل تبادل الحركات في اللغة، ثم مفهوم المثلث لغة واصطلاحاً، ثم درست نماذج للإحلال بين الصوائت القصيرة باختلاف المعنى، وأخرى باتفاق المعنى.

أما الفصل الرابع فعنوانه الإبدال Substitution تحدثت فيه عن مفهومه اللغوي والاصطلاحي عند النحويين وعند الصرفيين، ثم طُرُق التعرف عليه في الكلمة، وأسباب شيوعه في اللغة، ثم عرجت - بإيجاز - على رأى المحدثين في الإبدال، ثم تناولت نماذجه عند اللغويين متبعاً منهجاً علمياً قائماً على تلمس العلاقة الصوتية في المخرج أو الصفة بين المبدل والمبدل منه، بشرط اتحادهما في المعنى، وما عدا ذلك حكمنا عليه بأنه من المترادفات أو الأخطاء السمعية أو التصحيف أو التحريف أو اللشغات الخاصة، أو غير ذلك... ثم فصّلت القول بعد ذلك عن التصحيف والتحريف ودورهما في نشأة الإبدال.

أما الفصل الخامس فتناولت فيه ظاهرة الإدغام Incorporation تحدثت - أولاً - عن الإدغام لغة واصطلاحاً، وحروف الفم وعلاقتها بالإدغام، ثم أقسامه، ثم ذكرت نماذجه عند علمائنا الأقدمين، محلاً آراءهم ومفسراً لها. ثم تناولت ظاهرة المخالفة الصوتية Dissimulation مفهومها، وأقسامها، وعلتها، والأسباب التي أدت إليها، ثم ذكرت نماذجها.

أما الفصل السادس فعنوانه «الفتح والإمالة» بينت فيه مفهوم الإمالة عند النحويين وعند اللغويين، والغرض منها، والفرق بينها وبين الفتح وأسبابها وأنواعها، ثم تناولت نماذجها مبيناً سبب إمالتها لتلك الكلمة أو ذاك بالشرح والتفصيل.

أما الفصل السابع فيتناول «ظاهرة الهمز والتخفيف» مبيناً أحوالها ونماذجها، ثم نوهت بالإشارة إلى أن تحقيق الهمز هو الأصل، والتخفيف فرع، وأن تحقيق الهمزة وحذفها لا يكون إلا من أجل خفة الصوت واقتصاداً للجهد العضلي.

وبعد... فلقد بذلت في هذا البحث ما وفقني الله إليه، وأسأله النفع به، وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلف

obeikandi.com

أهداف الدراسة الصوتية

لقد اهتم علماءنا القدامى والمحدثون بدراسة الأصوات اللغوية لحرصهم على ضبط ألفاظ القرآن الكريم، حبل الله المتين، ونطقهم إياها نطقاً سليماً بعيداً عن اللحن والخلل، ذلك أن الأداء السليم للغة يحفظ لها رونقها في الأسماع ووقعها الساحر في النفوس، ويفتح لها القلوب فتعى ما تسمع، ثم تتأمله في تودة وارتياح.

هذا ويمكننا تحديد أهداف دراستنا لأصوات اللغة على الوجه الآتي :

١ - إجادة نطق ألفاظ القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، نطقاً سليماً باللغة العربية التي شرفها الله تعالى فنزل بها القرآن الكريم.

٢ - تفيد هذه الدراسة في رصد التطور الصوتي الذي يعرض للأصوات على ألسنة الناطقين بشرط أن يكون هذا التطور محكوماً بقانون لغوي كاتحاد المخارج أو تقاربها، وكاتحاد الصفات أو بعضها. ومن نماذجه تطور القاف إلى غين في نطق أهالي السودان فيقولون: الغرون بدلاً من القرون، والغمر بدلاً من القمر. وتطور الجيم إلى غين في نطق أهالي الكويت فيقولون: ريغن بدلاً من ريجن. وتطور التاء إلى دال في نطق بعض الأهالي في صعيد مصر، كقولهم بردجال بدلاً من برتقال، والبعض الآخر ينطق القاف همزة واللام نوناً فيقول: برتان بدلاً من برتقال. وفي لبنان أيضاً ينطقون القاف همزة فيقولون: الموساى بدلاً من الموسيقى.

٣ - تمكننا دراسة الأصوات من معرفة التغيرات التاريخية في الأصوات كتطور الباء المهموسة في اللغة السامية الأم إلى (فاء) في اللغات

السامية الجنوبية وهي العربية والحبشية، وقد بقي الأصل كما هو في اللغات السامية الشمالية وهي العبرية والآرامية والأكدية، ومثال ذلك كلمة Pól (פֹּל) العبرية صارت في العربية فول، وفي الحبشية Fál (ፋል) (١).

ونتعرف من خلالها أيضاً على قانون المماثلة الصوتية Assimilation كقلب تاء الافتعال طاءً تارةً كما في كلمة اصتبر = اصطبر، وقلبها تارةً أخرى دالاً كما في ازتجر = ازدجر.

٤ - تفيد هذه الدراسة كذلك في التعرف على اللهجات المختلفة للقبائل كقول ابن خالويه في شرح الفصيح: «اختلف رجلان في الصقر، فقال أحدهما بالسین، وقال الآخر بالصاد، فتحكما إلى أعرابي ثالث، فقال: أما أنا فأقول الزقر بالزای، فقال ابن خالويه: فدل على أنها ثلاث لغات» (٢).

٥ - تفيد دراسة الأصوات في التعرف على عيوب أعضاء النطق والسمع (٣)، فالميم تخرج من الخيشوم لما فيها من الغنة، فلذلك تسمعا كالنون. وتفيد أيضاً في دراسة عيوب الأداء الصوتي كالرتة واللثغة (٤).

(١) د. رمضان عبد التواب، التطور اللغوي: ص ٢٤.

(٢) السيوطي، الزهر: ج ١، ص ٤٧٥

(٣) للتعرف على عيوب أعضاء النطق، انظر د. عبد الغفار هلال، اللهجات العربية ص ١٤٨ وما بعدها.

(٤) الرتة: تعني العجلة والسرعة في الكلام، وهي أن يقلب المتكلم اللام ياء نحو نطقهم: جمل: جمى، والراء تتحول عند الأثغ إلى غين أو همزة أو لام، فكلمة يا ربى قد تنطق يا غبى ويا أبى ويالى، انظر هذا المثال في السيوطي، الزهر: ج ١ ص ٢٦٥، واللهجات العربية للدكتور هلال: ص ١٤٩. والمعجم الوسيط: مادة لثغ: ج ٢، ص ٨٤٨.